ثقافة

لاأزال أذكر محاضرة قرأتها منذ أعوام للاديب الفرنسي العظيم بول فاليرى ألقاها فى لوزان وحاول فيها أن يرد العقل الأوربى إلي العناصر الأولى التي عملت فى تكوينه والتى تميزه من العقول الأخرى وتقدمه عليها وتبيح للاوربيين مايستمتعون به من التفوق فى الحياة العقلية والعلمية معا . لا أزال أذكر هذه المحاضرة لانها كانت من دقة التفكير وقوته ووضوحه بحيث فرضت على الاعجاب بها واضطرتني الي أن أقرأها غير مرة وحببت الي قراءة مايكتبه صاحبها على مافى أسلوبه وتفكيره فى أكثر الاحيان من التواء وغموض مهما يعجب بهما الفرنسيون فى هذه الايام فهما مصدر مشقة لقرائه من الفرنسيين المثقفين فضلا عن الاجانب

كان بول فاليرى يرد العقل الأوربي الي مكونات ثلاثة عظيمة الخطر هي العقل اليوناني وما أنتج من أدب وفن وفلسفة والعقل الرومانى وما أنتج من تشريع ونظام والدين المسيحي وما أنتج من حب للخير وميل إلي الاحسان وكان يرى ان لكل واحد من هذه العقول أثرا عظيما في تكوين الحياة الأوربية المعنوية ثم فى تكوين الحياة العملية التى هي فى حقيقة الامر أثر من آثار التفكير الاوربى ومرآة ينعكس فيها هذا التفكير فهم يونان حين يفكرون و ينتجون في الأدب والفن والفلسفة وان بعد العهد بينهم وبين اليونان وان اشتد التطور حتى خيل اليك ان ليس بين آثارهم وآثار اليونان من صلة وهم رومان حين يشرعون أو يحاربون أو يستعمرون مهما يكن الفرق عظيما بينهم وبين الرومان في التشريع والحرب والاستعمار وهم مسيحيون حين يحسنون أو يطمحون الي الخير مهما يأخذ احسانهم وطموحهم من أشكال تباعد بينهم وبين الاحسان الذى تصوره المسيحية الأولي وهم لهذا كله قد جمعوا خير مايتفوق به الرجل على الرجل وأعظم مايمتاز به الانسان من الانسان . أعجبت بهذا البحث وأعجب به كثير من القراء الاوربيين حين ألقي وحين نشر فى كتاب وان كنت لم أعن بتحقيقه ولم أحفل بان يكون المكاتب قد

وفق الى الصواب أو تورط فى الخطأ ولكنى على كل حال حمدت لهذا الكاتب انه استطاع أن يتصور عقلا أوربيا على اختلاف الاوربيين فى اللغة والنظم وفى الآثار المختلفة التي يستتبعها اختلاف اللغات والنظم كما انى حمدت للاوربيين أنفسهم الا يكون تفاوتهم فى الجنس واللغة والنظام وما إلي ذلك كله مانعا من أن يكون لهم عقل واحد متشابه يستطيع كاتب أن يدرسه ويحلله ويرده إلي أصوله المشتركة

وكثيرا ماحاولت منذ قرأت هذا الفصل ان أتصور عقلنا المصرى وادرسه وأرده الي عناصره الأولي التى كونته كما هو . فلم يكن هذا التصور ولا الدرس شيئا يسيرا ونحن مع ذلك أمة واحدة لها مقومات واحدة نشترك فيها جميعا فنحن مشتركون فى الجنس والاقليم واللغة والمنافع الاقتصادية والنظام السياسى والاجتماعي ولكننا على هذا كله مختلفون فى العقل اختلافا ظاهرا جدا وربما كان خطيرا وربما كان مصدر كثير من المشقة التى نلقاها فى حياتنا الحاضرة

ذلك اني ما أظن انك تنازعنى فى اننا لانقوم الاشياء تقويما واحدا ولا نحكم عليها أحكاما متقاربة لاننا لانتصورها تصورا متقاربا وليس من شك فى اننا الان أقل تشابها واتحادا من هذه الناحية العقلية مما كنا فى أي وقت مضى فقد كان المصريون فى أول القرن الماضي والي ان تقدم القرن الماضى حتى تجاوز نصفه متشابهين فى التفكير والتعبير ثم فى حياتهم العملية كان لهم عقل واحد يعبرون عنه بلغة واحدة وأسلوب واحد ويصدرون فى كل ما يأتونه من الحركات والأعمال . أما الان وقد أخذنا نتصل بالاوربيين وأخذ اتصالنا بالاوربيين يشتد شيئا فشيئا ويمتد قليلا قليلا فقد تغيرت هذه الحال وانشق المصريون خاصة والشرقيون عامة الي فريقين فريق مازال يفكر ويعبر ويحيا على شيء من الاسلوب القديم قد يكون قويا وقد يكون ضعيفا ولكنه على كل حال ظاهر يمكن تصوره وتشخيصه . وفريق آخر يفكر ويعبر ويحيا على أسلوب جديد أوربي لاتكاد تظهر الصلة بينه وبين حياتنا القديمة . وهذا فى نفسه شيء طبيعى لاغرابة فيه فهو التطور والانتقال من حال الى حال وهو الصراع بين القديم والجديد والنزاع بين حضارة وحضارة وانتصار احدى هاتين الحضارتين المتنازعتين على الأخرى في سرعة أو بطء باختلاف الظروف التى تحيط بهذا التطور ولكن تطورنا لايخلو من غرابة فقد خضعنا له فيما يظهر غير شاعرين به ولا آبهين له ولم نستطع ان نقدره قدره ولا ان نحسب حسابا للآثار التي قد ينتجها . فمضى فريق منا مع الحركة الجديدة ومضى فريق آخر فى الحياة القديمة واضطرب فريق بين أولئك وهؤلاء

وأنا أعلم ان محمد علي الكبير كان يعرف ما يريد وكان ما يريد ما يأتي من الأمر حين كان ينقل الي مصر ما كان ينقل اليها من اساليب الحياة الأوربية والتفكير الاوربي وربما كان قليل جدا بين أعوانه يشاركونه في الشعور بقيمة هذا العمل ولكني أشك أشد الشك في ان الناس كانوا يقدرون هذا العمل أو يحسبون له حسابا انما كانوا يخضعون له كما كانوا يخضعون لغيره من أمر السلطان على كره شديد أو رغبة فاترة . ونستطيع ان نقول مثل هذا في اسماعيل وأعوانه وان كان الفرق بين اسماعيل ومحمد علي وأعوانهما ظاهرا من بعض الوجوه فقد كان محمد علي يقدر لنقل الحضارة الاوربية الي مصر منفعة عاجلة هي النهضة الصناعية التي تنهض بحاجات بلد يريد ان يجاهد ويسود ولكنه لم يكن يفكر كثيراً فيما كان يفكر فيه اسماعيل من الرغبة في الرقي لانه رقي وفي الحضارة لانها حضارة والعلم لانه علم . وكذلك كان اعوان محمد علي يعينونه على الوصول الي هذه المنفعة العاجلة المؤقتة بينما كان أعوان اسماعيل يعينونه على الطموح الى مثل أعلى يسمو فوق المنافع العاجلة ويبعد كلما دانت منه طلابه فيضطرهم الي السعي ويبعث فيهم النشاط ولكن اولئك وهؤلاء كانوا قلة لا تكاد تظهر وكانت كثرة الناس تخضع للتطور عن كره شديد ورغبة فاترة كما قلنا

كان من أثر هذا ان الذين أشرفوا على هذا التطور في مصر لم يأخذوا له عدته ولم يضعوا له من النظم والاصول ما يمكنه من أن يسير سيراً مضطرداً منتجا وانما كانوا يترددون ويضطربون ويشفقون ويحسبون حسابا لظروف لا تكاد تحصي . فهم اذا تقدموا من ناحية وقفوا أو تاخروا من ناحية اخرى ونشأ عن هذا انا وصلنا الي حيث نحن الان . ورقينا مهما يكن عظيما ليس مستويا ولا متشابها ففينا بيئات راقية جدا وبيئات منحطة جدا وفي بعض نواحي حياتنا العامة رقي يشبه أن يكون طفرة وفي بعض نواحيها الأخرى انحطاط يشبه أن يكون جمودا . فنحن من الناحية التشريعية والقضائية قد خطونا خطوات بعيدة بحيث نستطيع أن نقول ان الفرق بيننا وبين كثير من الأمم الاوربية لا يكاد يذكر . ونحن كذلك من بعض النواحي العلمية القليلة لا بأس بالشوط الذي قطعناه ولكننا من نواح أخرى كثيرة لا نزال أطفالا وعيالا على الأوربيين

هذا الاضطراب الذي نلاحظه واضحا جليا في حياتنا العامة يظهر أشد وضوحا وأكثر جلاء في ناحية بعينها من نواحي هذه الحياة وهي ناحية الحياة العقلية فقد عنى محمد علي وعني بعده اسماعيل بارسال البعوث الى أوربا وتنظيم المدارس المدنية في مصر . وعنيا أيضا بتشجيع الترجمة والتاليف وكان لهذا كله أثر ظاهر فوجدت في مصر طائفة

مختفة على الاسلوب الاوربي وسيطرت هذه الطائفة على حياة مصر فتولت الحكم والقضاء وتدبير الامور واتصلت منذ ذلك الوقت سنة الامبرين العظيمين فى العناية بالبعوث وتنظيم التعليم المدني وتشجيع الترجمة والتاليف تقوى حينا وتضعف حينا آخر ولكنها اتصلت على كل حال وانتجت آثارها الطبيعية فكثرت هذه الطائفة المتاثرة بالثقافة الاوربية واشتدت سيطرتها على الحكم واستئثارها بتسيير الامور ولكن تعليما آخر مصريا خالصا كان موجودا فى أيام محمد على وفى أيام اسماعيل لم يستطع هذا الامير أوذاك أوهم يرد هذا الامير أوذاك أن يمسه بشيء من التغيير أو التبديل أوان يخضعه لشيء من هذا التطور تحرجا واشفاقا أوملاشئت من الاسباب فظل هذا التعليم المصرى الخالص فى الازهر الشريف متصلا محافظا على انكاله وأساليبه القديمة منتجا آثاره الطبيعية من اخراج جماعات من الناس يتصورون ويفكرون ويعبرون ويحيون على الاسلوب القديم وأخذ سلطان هذه الجماعة يضعف ويتضاءل وأخذت هذه الجماعات تشعر شيئا فشيئا بضعف سلطانها وتضاؤله وافلات الامور من أيديها فما هى الا ان كان الالم ثم الشكوى ثم انكار بوشك أن يكون ثورة . وأحس أولو الامر شيئا من هذا فحاولوا التجديد فى هذه الناحية ولكن على استحياء وتحرج فكانت نتيجة هذا التجديد المستحي تعقيدا لحياتنا العقلية واسرافا فى التفريق بين عقولنا وأساليبنا فى الحس والشعور

أنشأوا دار العلوم التى لاتحافظ كل المحافظة ولا تجدد كل التجديد وأنشأوا كذلك مدرسة القضاء الشرعى على نحو من هذا التجديد المستحي وأنشاوا مدارس المعلمين للتعليم الاولي على نحو من هذا التجديد المستحى فانتج التجديد الخالص من ناحية فى المدارس المدنية وانتجت المحافظة الخالصة من ناحيـة أخرى فى الازهر وملحقاته من ناحية ثانية وأنتج التجديد المضطرب فى هذه المدارس الغربية من ناحية ثالثة وكانت النتيجة أن عقلياتنا لانكاد نحصى الآن فانت تستطيع أن تلقى على الناس مسالة بينها ثم تحاول أن تعرف فهمهم لها ورأيهم فيها فترى فى هذا اختلافا شديدا

للذين أنشاتهم المدارس المدنية فهم ورأى وللذين أنشاهم الازهر فهم ورأى وللذين أنشاتهم تلك المدارس العرجاء فهم ورأي ومن غريب الامر أن التجديد الخالص نفسه لم يخل من اضطراب وتذبذب فقد سئنا منذ أواخر القرن الماضي لانفسنا التردد فى ارسال الطلبة الي أوربا نرسل بعضهم الي انجلترا و بعضهم الي فرنسا و بعضهم الي المانيا ولانحسن الاشراف على أولئك ولاهؤلاء فيتعلم أولئك وهؤلاء كما يستطيعون وحيث يستطيعون ثم يعودون الينا ولهم عقولهم المختلفة يفهمون من الاشياء فهما متباينا ويحكمون عليها أحكاما متباعدة

وحاول التجديد آخر الأمر أن يدخل الأزهر فافسد كثيرا ولم يصلح شيئا ذلك انه لم يكن تجديدا صريحا ولا صحيحا وانما كان ظاهرا من التجديد وقشورا من العلم تخيل الي أصحابها أنهم قد حفظوا العلم كله على حين لم يعرفوا منه الا صورا مشوهة وظهرت مسرعة نتائج هذا التجديد المفسد فتقفت طبقات من الأزهريين بشيء من العلم غريب كان ينقل اليها في الصحف والمجلات عن كتب لاقيمة لها تمس ماوراء المادة ومابعد الطبيعة على أسلوب الروحيين لاعلى أسلوب الفلاسفة وكم ضحكت وأسفت حين رأيت رجلا من كبار العلماء ذات يوم يرد على بعض من يسميهم الملحدين فينقل له جملا من بعض هذه القصص الأمريكية التي تزاع بين الناس على أنها أراء علماء اوربا في صحة الديانات وقوتها هذه . حالنا الان اضطراب لاتكاد تعرف له حدا في الفهم والحكم

أفتظن انا نستطيع ان نتصور عقلا مصريا كما نتصور بول فاليري عقلا أوربيا وانا نستطيع أن نرد هذا العقل الى أصوله ونحلله الي العناصر التي عملت في تكوينه ، كلا لنا عقل أوربي خالص ضعيف لم يقو بعد فهو يحاول ان يتصور الأشياء ويقضي فيها على المذهب الأوربي وكان لنا عقل مصري خالص في الأزهر كان يتصور الأشياء ويقضي بها على النحو القديم ولكن التجديد السيء يفسده شيئا فشيئا فلست أدري كيف يفهم الآن ولا كيف يقضي ولكني أعلم انه يعبث بالأشياء أكثر مما يفهمها ويقضي بها ولنا عقل ثالث لا ادري كيف اشخصه فيه أيسر ما كان في الازهر وفيه أيسر ما في الجديد الخالص كل ذلك ممسوخ مشوه فقدرات تصور هذا العقل للاشياء وقضاءه فيها وقدر أنت بعد هذا كله مقدار حظنا من الاتحاد والاشتراك في التصور والحكم ثم في الشعور والطموح إلى المثل الأعلى

يري الجغرافيون ان الجنس واللغة والدين والنظام السياسي والاقليم مقومات تكون لتكوين الامة وقد يكون هذا صحيحا ولكن هذه المقومات نفسها تستتبع مقوما آخر لابد منه لتحيا هذه الامة حياة صالحة وترقى رقيا مضطردا وهو الثقافة فلابد للامة التي تستحق هذا الاسم من ثقافة قومية تمثل ميولها ومثلها العليا وجهودها في سبيل الرقي وفي سبيل الوصول الي الحق والي الخير . ويجب ان تكون هذه الثقافة متشابهة تختلف مقدارها باختلاف الافراد والبيئات ولا أريد ان أقول الطبقات ولكن نوعها لا يختلف كما يختلف عندنا الآن

يجب ان يكون حظ معين من الثقافة مشتركا بين أفراد الامة جميعا في طور من اطوار

حياتهم وأن تكون لهؤلاء الافراد بعد ذلك انواع من الثقافة تختلف فى الاغراض اكثر مما تختلف فى الطبيعة والمنهج

ومن غريب الأمر اننا لانحاول أن نستفيد بتجارب الامم من قبلنا فقد خضع الناس من قبلنا لهذا التصور الذى نخضع له فنشأ التعليم المدني فزاحم التعليم الديني حتى زحمه واستأثر من دونه بالسيطرة والسلطان ولكن رجال الدين فى أوربا كانوا من المهارة والمرونة بحيث احتفظوا بتعليمهم الدينى فرقوه وأصلحوه ثم شقوا فى الوقت نفسه لانفسهم طرقا فى التعليم المدني فشاركوا فيه غيرهم من الناس وظفروا باجازاته وأخذوا نصيبهم من الانتاج فيه فلم لا نسير نحن سيرة غيرنا من الناس ؟

تعنى الحكومة منذ أعوام باصلاح مناهج التعليم وبرامجه وهذا خير ولكن الغريب أنها تصلح فى الالفاظ والنظريات ولاتحاول أن تصلح جوهر التعليم ولاتفكر فى هذه الفروق العقلية العنيفة التى تقسم الامة الواحدة الى فرق متمايزة والتى يجب أن تزال وأن تقوم مقامها وحدة عقلية تمكن الناس من أن يشعروا معا ويفهموا معا ويحكموا أحكاما متقاربة

فى وزارة المعارف حركة اصلاح وفى الازهر حركة اصلاح أيضا وكلتا الحركتين تأخذ طريقا غير الذى تأخذه الاخرى فما أجدر المشرفين هنا وهناك أن يفكروا قليلا وأن يدنو بعضهم من بعض حتى يصلوا الى طريق يسلكونه معا فيحتفظ الازهر بتعليمه الدينى الخالص ويشق لمن شاء من ابنائه مع ذلك طريق التعليم المدنى العام

طه حسين